حديث القرآن عمّا كان وما سيكون

ســؤال: يقولـون: "إن القــرآن الكريم قد أخبر عــن كل ما جرى ومــا ســيجري". **فهل هذا صحيح؟ فـإن كان هذا صحيحًا فهل لنا أن نعد العلوم الطبيعية والتقنيات الحديثة من جملة ما أخبر عنه القرآن؟**

الجــواب: نعـم، يتحـدَّث القرآنُ إجمـالًا عـن كلِّ مـا أذِن الله تعالى للإنسـان بمعرفتـه، وكلّ مـا يصـل بـه إلـى الرقـيّ المـاديّ والمعنـويّ. أما الحديثُ عمَّا لم يأذن الله بمعرفته، ولا يجرُّ نفعًا على الإنسان في حياته الدنيويـة والأخروية فلا يدخل في نطاق البحـث ألبتة، خصوصًا التفصيلُ فيهـا. إذ إنّ قبـول أمرٍ كهذا يعني نسـبة العبث واللهو إلـى كتاب كلُّه علمٌ وحكمـةٌ، وهـذا الكتـابُ أسـمى من أن يقــع فيه العبـث أو يوصف بعدم الجدوى والمنفعة.

إن للقرآن منهجًا يتَّبعه في تناول المسائل وتفسيرها، إن جهِل المفسِّر هذا المنهجَ مُنِي بخيبة الأمل، ولا يستطيـع أن يجد بغيته فيه.

هـدفُ القـرآن أوّلًا أن يعـرِّف صاحـبَ كتـاب الكون بـكل كلمة من كلمـات هـذا الكتـاب وبكل سـطر من أسـطره وبـكل فقرة منه، وإرشـادُ النـاس إلى الإيمان والعبـادة، وتنظيمُ الحياة الفردية والاجتماعية، والبلوغ بالإنسان إلى السعادة الدنيوية مع ضمان دوامها وديمومتها في الآخرة.

ويتنـاول القـرآن كلَّ شـيء لتحقيق هذا الهـدف السـامي، متخذًا كلّ ما يعرِضه وسـيلةً في هذا الطريق، فيتكلم عن هذه الأشـياء بقدر أهميتها؛ الإنسـان علـى قـدر منزلته، والنجـوم وفق منازلهـا ودرجاتهـا، والكهرباء على حسب مكانتها.

ولو لم يفعل القرآن الكريم هذا وقصر الحديث عن جزء من عجائب الحضارة في القرن العشرين لضاع حق التعريف والبيان لكثير من الحقائق، ولأغفلت بعض الحقائق الثابتة والاكتشافات المستقبلية، ولأُهمل أمر الإنسان خاصة. وهذا الأمر يتناقض كليَّةً مع روح القرآن الكريم ومقصده الأساسي.

للقرآن الكريم -الذي أُنزل هدًى للناس وتوطيدًا لعلاقتهم بخالقهم جل وعلا وكفيلًا لسعادتهم الأبدية- أوجهٌ وألوان تلائم عِظَمَ الأمر الذي يهدف إليه وسَعتَه وأهميتَه، ولقد أُلِّفت التفاسير وحُررت الكتب التي تزخر بها المكتبات حاليًّا لتكون مرآةً عاكسةً لهذه الأوجه كلية.

ولقد سجل عباقرة الأدب انبهارهم بإعجاز القرآن البيانيّ وبعباراته الأخّاذة وببلاغته الفائقة، في حين أن العلماء الذين يُجيلون النظرَ في الآفاق والأنفس وُفِّقوا لأن يروا ويدركوا الأوجه الحقيقية للحوادث والأشياء في ظلال أنوار القرآن الكريم المنيرة.

وبينما كان علماء النفس والاجتماع يحلّون به المشكلاتِ المستعصيةَ التي أصابَتْ روحَ الإنسان والجماعات، كان المربُّون وأساتذة الأخلاق قد اتخذوه منبعًا لا ينفد ولا ينضب، ثريًّا، مزدانًا بكافة الألوان، يرجعون إليه في تربية الأجيال على الدوام.

وإنني هنا أحيل عرض هذا المحتوى الثري الواسع للقرآن الكريم إلى الشروح السلسة الواضحة للمتخصصين في هذا الموضوع، وأوصي القارئ بالرجوع إلى الكتب المُدبَّجة في هذا الصدد، فلا يخفى على أحد أنه لا طاقة لمقالة كهذه بعرض القرآن بكلِّ جوانبه.

للقرآن خاصية كثيرًا ما تخطرُ على بال شبابنا عند الحديث عن محتوى القرآن، وهي علاقة القرآن بالتقنية والعلوم الطبيعيّة

بل قل العلوم الوضعية إن شئت، لذا سنخص هذه الخاصيّة في حديثنا، فهي المقصود من السؤال المطروح.

الواقع أن هذه الساحة ليست بكرًا، فقد حُررت مئات المؤلفات حتى الآن في هذا الموضوع تُلقِي الضوء على مئات من الحقائق القرآنية، إلا أن معظم هذه المؤلفات يوم أن كُتِبت وقعت تحت تأثير ثقافةِ وفنِّ عصرها، فتلقاها القارئ بريبة وحذر لِما حوته من تأويلات متكلفة، لا سيما تلك المحاولات التي اضطلع بها بعضهم للتوفيق بين الحقائق القرآنية ونظريات علمية لم تثبت بعد، ظنًّا منهم أن تلك النظريات باتت حقيقةً علميَّةً، فأدّى هذا إلى نوع تحريف للقرآن وتقليل من شأنه، علمًا أن ما في القرآن الكريم من بيان وتفصيلٍ لهذه المسائل قد ورد بأسلوب ميسر وواضح جدًّا يفهمه الناس جميعًا، حتَّى إنّ المَلك الذي نزل به والراعي على الجبل لا يختلفان كثيرًا في فهم المقصد الإلهي، هذا بغضّ النظر عن اختلاف تذوق اللطائف الإنسانية.

وعلى ذلك فلا بد أن يعتمد منهجنا في تفسير آيات القرآن على الموضوعية والثقة برصانة النصّ الربانيّ وصفائه، واتخاذه مرآةً عاكسةً لفهم الأحداث بدلًا من توفيق الأحداث على القرآن.

وتفسير القرآن يقتضي معرفةً دقيقةً باللغة وأسباب النزول وأسرار الكلمات، لذا نجد رُؤَى الصحابة والتابعين وأوائل المفسرين من أمثال ابن جرير الطبري ﵁ متوافقةً تمامًا مع الحقائق العلمية الثابتة، في حين أننا نصادف عند الخلف تأويلات متكلفةً لا تتوافق مع روح العلم رغم أن الخلف ظهروا وكأنهم أكثر فلسفةً وعمقًا من السلف. وهذا يوضح لنا أن المفسرين الذين فسروا القرآن دون أن يتأثروا بعصرهم كانوا أقرب لروح القرآن من غيرهم.

والآن أود أن أضرب بضعة أمثلة على الأمور التي حاولت عرضها، للإجابة على السؤال المطروح:

ينبّهنا الخالق ﷻ -وهو الذي يعلم كلَّ شيء من الأزل إلى الأبد- **بدايةً**: إلى أنَّ المستقبل بالمعنى العامّ سيغدو عصرَ العلم والعرفان ثم الإيمانِ وهو نتيجة ضرورية لسابقَيْه، يقول ربنا ﷻ: **﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾** (سُورَةُ فُصِّلَتْ: ٤١/٥٣) إن هذه الآية -وهي التي يعدُّها أرباب التصوف على مرّ العصور موئلًا يرجعون إليه على الدوام- إذا تأملت فيها بنظرة علمية صدّقت أنها معجزة.

كلُّ ما من شأنه أن يدخل في نطاق التفكير والبحث البشريّ من الذرات إلى المجرّات سيصدِّق القرآنَ بماهيته التي سيكشف عنها المستقبلُ، وسيؤكد وجودَ الله ووحدانيته، ولدى مطالعة مئات الكتب المعروضة في المكتبات عن هذا الموضوع نرى أن ما ذكره القرآن من حقائق أوشكت أن تتحقق وكأننا نسمع من الآن تسبيحات الكون بآلاف ألسنته التي يمكن أن تُفهَم في المستقبل.

والحقّ أن ما نفهمه من خلال الأحداث من قول ربنا تبارك وتعالى **﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾** (سُورَةُ الإِسْرَاءِ: ١٧/٤٤) قدرٌ لا يستهان به. نَعَم، فلغة الذرات أفصحت لنا عن أشياء عظيمة ومثلُها ضجيجُ المجرَّات، فكم وكم من أمورٍ أدركناها من خلالها، إلا أن عدد من يسمع ويفهم هذا التسبيح المحيط بالعالم ما زال قليلًا، وما زال من يبلّغ هذا التسبيح للعالم من أهل القرآن قلّة قليلة جدًّا.

٢- إن حديث القرآن عن تخلّق الجنين ومراحل نموه في بطن أمه لهو أمر جدّ عجيب، يقول تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ**

مِـنَ الْبَعْثِ فَإِنَّـا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُـمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَـةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَـةٍ وَغَـيْرِ مُخَلَّقَـةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ (سُورَةُ الْحَـجِّ: ٥/٢٢) وفي آية أخرى يشـير القـرآن الكريـم إلى مراحل تكوّن الجنين في بطن الأم مرحلة بعد مرحلة، يقـول تعالى: **﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَـا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَـوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾** (سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ: ١٤/٢٣).

وفـي آيـةٍ أخرى يسـلط الضـوء على عمليـة مختلفة تجـري في بطن الأمّ أيضًـا، يقول تعالـى: **﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُـمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَـاتٍ ثَـلاَثٍ ذَلِكُـمُ اللهُ رَبُّكُـمْ لَهُ الْمُلْـكُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَـأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾** (سُورَةُ الزُّمَرِ: ٦/٣٩).

ومعلوم أنّ الرحم يتشكل من ثلاثة أنسجة من الخارج إلى الداخل، هي: غشاء الرحم (*perimetrium*)، عضل الرحم (*myometrium*)،بطانة الرحم (*endometrium*)، وهـي أنسـجة تحيـط بها أغشـية لا تسـمح بنفوذ الماء والحـرارة والضوء، ويطلق القرآن الكريم على هذه الأغشـية "ظلمات"، وينبهنا إلى أنَّ الإنسان قد خُلِق داخل هذه الظلمات الثلاث.

والآن لنُخَـلّ بيـن أطبائنا وبين تلك الإشـارات الوجيـزة التي وردت فـي هذه الآيات وكانت نبراسًـا وهدى لعلم التشـريح فـي أيامنا، ولننتقل إلى مثالٍ آخر:

٣- يتحـدث القـرآن عن كيفية تكوّن اللبـن واضحًا جليًّا مثل وضوح اللبـن وصفائـه، فيقـول: **﴿وَإِنَّ لَكُـمْ فِي الأَنْعَـامِ لَعِـبْرَةً نُسْـقِيكُمْ مِمَّـا فِي بُطُونِـهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَـائِغًا لِلشَّـارِبِينَ﴾** (سُورَةُ النَّحْلِ: ٦٦/١٦)، فهنـا يبيـن لنـا القـرآن الكريـم كلمـة كلمـة مراحلَ تكـوّن اللبـن وكيف أن المـادة الغذائيـة التي يتم تناولها تُهضـم أولًا نصف هضم، ثم تخضـع لعملية أخرى من التصفية والتنقية في الغدد اللبنية.

٤- وفي القرآن آية باهرة أخرى تشير إلى أنّ كل شيء خُلق زوجين ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (سُورَةُ يس: ٣٦/٣٦)، ومثلها قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ (سُورَةُ الذَّارِيَاتِ: ٤٩/٥١)، وقوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ (سُورَةُ الرَّعْدِ: ٣/١٣).

كانت الذكورة والأنوثة تُعرف عند المخلوقات منذ زمن بعيد، إلا أن تعميم القرآن للزوجية بقوله ﴿**وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ**﴾ وقوله ﴿**وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ**﴾ جعلها شاملة لكلِّ شيء؛ من أعشاب وأشجار، حتى السلب والإيجاب في السحب والذرات، وهذا أمرٌ يبعث كثيرًا على الحيرة والإعجاب.

٥- يعرض القرآن مسألة خلق الكون بأسلوب تفرّد به، يقول تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ**﴾ (سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ: ٣٠/٢١).

ما أجلى هذا البيانَ وما أبينَه! لذا ينبغي ألا يُكدَّر مطلقًا بفرضيات كانط ولابلاس في الماضي، وفلسفات أسيمو في عصرنا.

ويبين القرآن أنَّ الكون إن هو إلا أجزاء من كلٍّ، وأوراقٌ لحقيقة واحدة متماثلة، سواء تكونت من الأثير مادة الخلق الأولى أم من سحابٍ هائل، أم كان الماء الذي هو أساس الحياة قد كفل المناخ المناسب للأحياء بأن تكوَّن من غازات وأبخرة تنبعث من الأرض ثم تعود إليها مطرًا تتشكل منه البحار، ويؤكد القرآن أهمية الماء للأحياء، بدءًا من أشجار الدلب حتى الإنسان.

٦- وللشمس أهمية خاصّة في الكون جميعه، ويبين القرآن الكريم جانبًا من أهمّ جوانبها بأربع كلمات فقط، فيقول: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ (سُورَةُ يس: ٣٦/٣٨).

كما توضّح الآية أن الشمس تجري في مدارٍ خاصٍّ بها، تبين كذلك أنها تنزلق إلى مركزِ ثِقَلٍ آخر، وعندما تنتهي من مهمتها تقف وتستقرُّ في مكانٍ ما.

٧- يتميز القرآن الكريم بثراء معاني كلماته حتى إنه ليذكر عددًا كبيرًا من الحقائق، ويجلي كثيرًا من المسائل المستعصية على الفهم بمثل هذه ببضع كلمات. ومن العبارات القرآنية الأخّاذة البليغة هذه الآية التي تتعلق بمسألة توسُّع الكون:

يقول الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (سُورَةُ الذَّارِيَاتِ: ٥١/٤٧)، فهذه الكلمات الوجيزة تنبهنا إلى مسألة تعمّ العالم بأسره، وسواء أشرحوا هذه المسألة بـ"ثابتة هابل" أو بطريق آخر، فهذه الآية تثبت التزايد المستمر في المسافة بين الأجرام السماوية، وهي جلية بتركيبها وكلماتها وواضح معناها.

٨- وفي آية أخرى ينبه القرآن الكريم إلى القانون في تقارب الأجرام السماوية وتباعدها ودورانها الدؤوب وتوقفها، فيقول عزَّ مِن قائل: ﴿اَللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ (سُورَةُ الرَّعْدِ: ١٣/٢)، فهذه الأنظمة والنجوم والأقمار تتحرك بنظام ما، وفوق عمد لا قبل لنا أن نراه، وهذا هو قانون الطرد المركزي بين الأجرام السماوية، وفي سورة الحج يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (سُورَةُ الْحَجِّ: ٢٢/٦٥). ففي هذه الآية يشير القرآن الكريم إلى أن الأجرام

السماوية كان من الممكن أن تقع على الأرض لولا أن الله تعالى لم يأذن لها، وهذا هو قانون الجذب المركزي بين الأجرام.

وهـذا المعنـى الـذي أوردته الآية واضـح جلي للعِيان؛ سـواء تناولنا هـذه المسـألة من حيث قانـون "الجاذبيـة العامة" عند نيوتـن أو "نظرية الحيز" التي ابتكرها عصر الفلك الحديث.

٩- أظـنّ أن مسـألة الصعـود إلـى القمر -التي تشـغل مسـاحة مهمة بيـن القضايـا الراهنـة- لها أيضًا نصيـب من بيانات القرآن ولو بالإشـارة، يقول الله تعالى: ﴿**لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ**﴾ (سُورَةُ الانْشِقَاقِ: ١٩/٨٤)، قد فسرها المفسـرون من قبلُ تفسيرات مناسـبة، لكنني على قناعة بأن المعنى الذي أشرتُ إليه آنفًا هو الأقرب للصواب من حيث السياق، لأن الآية تأتي بعد قوله تعالى: ﴿**وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ**﴾ (سُورَةُ الانْشِقَاقِ: ١٨/٨٤).

١٠- وهناك آية رائعة البيان تتعلق بتغير شـكل الكرة الأرضية، يقول فيهـا ربنا تبـارك وتعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَـرَوْا أَنَّا نَـأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِـنْ أَطْرَافِهَا**﴾ (سُورَةُ الرَّعْدِ: ٤١/١٣).

وهنـاك احتمـال قـويّ بـأن معنـى قولـه ﴿**نَنْقُصُهَـا مِـنْ أَطْرَافِهَـا**﴾ هـو تفلطُـح الأرض عنـد المناطـق القطبية، وليـس تآكل الجبـال بفعل المطر والسيل والريح.

١١- وأخيـرًا لنضـرب مثـالًا على التشـابه بين الشـمس والقمر بهذه الآية: ﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً**﴾ (سُورَةُ الإِسْرَاءِ: ١٢/١٧).

يقـول ابـن عبـاس رضي الله عنهما في هـذه الآيـة: "القمر آيـة الليل، والشـمس آيـة النهـار"، فيُفهـم من هـذا أن المقصود من قولـه ﴿**فَمَحَوْنَا آيَـةَ اللَّيْلِ**﴾

هو أن القمر قديمًا كان كوكبًا يشع بنوره كالشمس وتكمن فيه الحرارة، ثم أطفأ الله ﷻ نوره وحرارته، وبينما يتحدث القرآن الكريم عن ماضي القمر تارة نجده يشير تارة أخرى إلى مصير الكواكب الأخرى وعاقبتها.

وهناك كثير من الآيات القرآنية كالنماذج العديدة التي أشرنا إليها سالفًا، وكلها توضح أنّ كل مسألة يُعنَى بها الإنسان أقل ما في الأمر أنها وردت إجمالًا في القرآن الكريم؛ وتظهر الوجه الإعجازي للقرآن الكريم بشكل يفهمه الناس جميعًا، وأنه لا سبيل لأحد إلى أن يأتي بمثل ما أتى به.

ولا أريد أن أثقل عليكم، مؤملًا أن يأتي في المستقبل من يقدر على تفسير أمثال تلك الآيات في ضوء الضوابط التي ذكرناها؛ والله تعالى أعلى وأعلم.

عدم إمكانية نسبة القرآن إلى غير اللّٰه

سـؤال: **ألا يمكـن أن يكـون القـرآن مـن كلام رسـول الله ﷺ ؟ إن لم يكن كذلك فكيف يمكن البرهنة على هذا؟**

الجـواب: لقـد كُتب وقيـل الكثير في هـذا الموضـوع، وقُدمت أدلة عديدة أزالت كل تردد في هذه المسـألة، ولا نسـتطيع في الركن الصغير هذا المخصص للأسئلة والأجوبة سوى عرض رؤوس أقلام بإيجاز.

إن الادعـاء بـأن القـرآن وضـع من قِبل سـيدنا محمـد ﷺ أو من قِبل آخريـن ادعـاء انحصر في بعض رجال العهـد الجاهلي قديمًا وعند بعض المستشـرقين مـن أعـداء القـرآن الذيـن كثيرًا ما ادعـوا هـذا، وأرادوا منه تعكير الأذهان. ونحن نرى بأن مشـركي الأمس واليوم ليسـوا حياديين في تفكيرهـم، بـل تصرفوا بحقد وعداء. ذلك لأن مـن يتأمل القرآن بإنصاف وبفكـر محايـد يتبين أن مصدره إلهي، لأنه فـي مرتبة عالية بحيث يتجاوز القدرة البشرية.

ونحـن نحيل من يريـد التحليل الدقيق والعميق لهذا الموضوع المهم إلـى الكتب القيمة التـي كتبها عمالقة الفكر، ونكتفي هنـا بالتذكير ببعض النقاط الرئيسة في هذا المجال:

١- هنـاك فرق كبير جدًّا بين أسـلوب القرآن وبين أسـلوب الحديث النبـوي بحيث إن العرب بينما كانوا يرون في أحاديث الرسـول ﷺ خارج القـرآن أسـلوبًا مثل أسـلوبهم في الحـوار، فإنهم لـم يملكوا أنفسـهم من الحيرة بل الذهول من الأسلوب المعجز للقرآن.

٢- عندما تقرأ الأحاديث تحدس وراءها شخصًا يفكر ويتحدث قد ملأته خشية الله تعالى؛ بينما تجد في القرآن مهابةً وجلالًا وأسلوبًا قاهرًا. لذا فمن المستحيل أن يجتمع في أسلوب شخص وفي بيانه مثل هذا الفرق الكبير والبون الشاسع... هذا غير معقول وغير ممكن.

٣- إن من المستحيل قيام شخص أمّيّ -فديتُه بأبي وأمي- لم ير مدرسةً ولم يقرأ كتابًا بوضع نظام كامل لا نقص فيه ولا قصور... نظام يتناول الفرد والعائلة والمجتمع والاقتصاد والقانون. مثل هذا الافتراض يصادم العقل والفكر والبداهة، ولا سيما إن كان هذا النظام صالحًا للتطبيق طوال عصور عديدة وعند أمم مختلفة وشعوب متفرقة، ولا يزال محتفظًا بنضارته وقوته وقابليته على التطبيق حتى هذا اليوم.

٤- الحياة والوجود في القرآن وما يتعلق بهما من مواضيع العبادات والمعاملات تراها متوازنةً بعضها مع البعض توازنًا مدهشًا بحيث إن قمت بتناسي هذا وإهماله وقمت بنسب هذا الكلام إلى إنسان فإنك تكون قد رفعته فوق مستوى الإنسان. ذلك لأن مسألةً واحدةً فقط من المسائل المذكورة آنفًا تتجاوز الزمن وتتجاوز قدرة أكبر العباقرة. أي إن إسناد هذا الكتاب الذي يحتوي على مئات الأمور والمسائل التي يعجز عن إتيان واحدة منها كبار العباقرة إلى شخص أمي لم ير مدرسةً ولا كتابًا ليس إلا زعمًا باطلًا لا أساس له.

٥- يُعدّ القرآن كلامًا معجزًا بما يحتويه من أخبار الغيب للماضي وللمستقبل، لذا لا يمكن أن يُعد من كلام البشر. فنتيجة للبحوث الجديدة في هذه الأيام ظهر صدق ما أخبر القرآن قبل عصور عن الأقوام الماضية البادية وعن طراز حياتهم ومعيشتهم وعن عاقبتهم سيئةً كانت أم حسنةً. فهاكم مثلًا النبي صالحًا ولوطًا وموسى عليهم السلام وأقوامهم، وهاكم مساكنهم التي أصبحت عبرةً لمن اعتبر.

ومع إعجاز القرآن في إخباره عن أنباء الأمم الماضية، هناك إعجاز قرآني في أخباره المستقبلية. فمثلًا أخبر عن فتح مكة وأن المسلمين سيدخلونها آمنين قبل مدة من فتحها: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللّٰهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللّٰهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (سُورَةُ الفَتْحِ: ٤٨/٢٧).

وأخبر بأن الإسلام سينتصر على جميع الأنظمة الباطلة: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللّٰهِ شَهِيدًا﴾ (سُورَةُ الفَتْحِ: ٤٨/٢٨).

كما أخبر القرآن بأن الساسانيين الذين تغلبوا على الروم سوف يُهزمون في بضع سنين، وأن المسلمين سوف يفرحون يوم انتصار الروم بنصر آخر، وهو انتصارهم في بدر الذي توافق مع انتصار الروم على قول البعض من المفسرين: ﴿الم ۞ غُلِبَتِ الرُّومُ ۞ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۞ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلّٰهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۞ بِنَصْرِ اللّٰهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (سُورَةُ الرُّومِ: ٣٠/١-٥). وعندما حان الوقت الموعود تحقق ما أخبر به القرآن.

وشبيه بهذا الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّٰهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّٰهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٥/٦٧). فعلى الرغم من كون الرسول ﷺ محاطًا بالأعداء اعتبارًا من عمّه إلى قومه إلى الدول المحيطة به، أعلمه الله تعالى بأنه سيعصمه من الناس، وحقق له ما وعده.

والآية الكريمة: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (سُورَةُ فُصِّلَتْ: ٤١/٥٣).

هـذه الآيـة تقول بأن العلوم سـوف تتقدم، أي العلـوم المكانية (الوضعية) والعلـوم النفسـية، وإن هذا التقدم سـوف يسـوق الإنسـان إلـى الإيمان. وفي أيامنا الحالية تسرع العلوم لبلوغ هذا الهدف وتقترب منه كثيرًا.

ثـم إن القـرآن تحدّى الإنس والجن جميعًا: ﴿قُـلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِـنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُـوا بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُـونَ بِمِثْلِهِ وَلَـوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (سُورَةُ الإِسْرَاءِ: ٨٨/١٧). هذا التحدّي القرآنيّ وقـع منذ نـزوله في مكة ولا يـزال قائمًـا إلى يومنا هذا. فإذا اسـتثنينا محاولةً أو محاولتين اتسـمتا بالهذَيـان، لـم يتجرأ أحـد للتصدي لهـذا التحدي أو القيام بوضـع شـيء يشابهه. فكان هذا أسطع دليل على صدقه وإعجازه.

كان المسـلمون فـي السـنوات الأولـى لنـزول القـرآن ضعفـاءَ ومسـتضعفين فـي الأرض لا يملكـون حـولًا ولا قوةً ولا يملكـون فكرةً واضحـةً عـن مسـتقبلهم. فلم تكـن لديهم أدنى فكرة عـن الدولة ولا عن حكـم الدنيـا ولا عـن منابـع القـوة لدينهم الجديد الذي سـيقلب الأنظمة الدولية آنذاك، بينما كان القرآن يقول: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْـتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُـمُ الَّذِي ارْتَـضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِـنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًـا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَـيْئًا وَمَـنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِـكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِـقُونَ﴾ (سُـورَةُ النُّـورِ: ٥٥/٢٤). كان القرآن يخاطبهم هكذا ويبين لهم هذه الأهداف السامية ويبشرهم بأنهم سـيحكمون العالم. هناك آيات أخرى عديدة لا نسـتطيع سـردها جميعًا هنـا وهـي تذكر مسـتقبل الإسـلام والمسـلمين وانتصاراتهـم وهزائمهم، وتقدمهم وتأخرهم.

معظـم أخبـار القرآن الكريم حول المسـتقبل ترسـم الحـدود النهائية التي ستصل إليها مختلف العلوم. فما أخبر به القرآن بشكل رؤوس أقلام

مختصـراً ومركّـزاً حول بعض الحقائـق العلمية يذهـل العقول ولا يمكن تجاهلها كما لا يمكن إسنادها إلى قول بشر. ولما كانت هناك كتب عديدة تناولت مئات الآيات التي تناولت كثيرًا من الحقائق العلمية بشكل صريح واضـح أو عـن طريق الإشـارة والإيمـاء فإننا نحيل من يرغـب في معرفة تفاصيل هذا الموضوع إلى هذه الكتب القيمة ونكتفي نحن هنا بالإشـارة إلى بعض الأمثلة فقط:

١- خلق الكون

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ: ٢١/٣٠). هذه الآية متعلقة بخلـق الكـون، ومـع أن هنـاك خلافًا في تفسـير بعض تفاصيلهـا، إلا أن المعنـى العام لها يشـير إلى مبـدأ خلق الكون. فسـواء أكان المعنى للرتق والفتق هو تكوّن المجرات والنجوم من الغازات والسدم، أو تشكل وظهور مجموعات كالمجموعة الشمسـية، أو انقسـام سـحب أو سـدم وتجزؤها إلـى أشـكال ومنظومـات معينـة متناسـقة... فـإن المعنـى العـام لا يتغير فـي النتيجـة. فالآية بالكلمات التي اسـتعملتها وبالأسـلوب الذي صاغته احتفظت بجدتها ونضارتها حتى اليوم، وستبقى جديدة في المستقبل أيضًا رغم تساقط جميع النظريات ووضعها على الرف.

٢- علم الفلك

هناك آيات عدة في القرآن الكريم حول علم الفلَك. وكم يتمنى المرء الآن لو جمعت هذه الآيات وتم تحليلها واحدة واحدة، وهذا قد يستوعب مجلدات. سنكتفي هنا بالإشارة إلى آية أو آيتين فقط:

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ (سُورَةُ الرَّعْدِ: ١٣/٢). تذكر الآية رفـع السـماوات وتوسيعها

ثم تشير إلى النظام الدقيق الموجود في الكون وأن كل شيء يسير في نظام ودقة، وتعطي حوله مثالًا نستطيع مشاهدته ومعرفته. صحيح ليس هناك عمد في الظاهر يمكن مشاهدتها تقوم بالحيلولة دون تشتت قبة السماء، ومع ذلك لا نستطيع القول إن مثل هذه العمد غير موجودة تمامًا. فهناك عمد موجودة ضمن القوانين والمبادئ السارية في الكون، وهي تقوم بمهمّة حفظ الكون من التشتت والانهيار، أي إن وجود مثل هذه العمد ضروري.

عندما نقرأ هذا التعبير القرآني تتداعى إلى أذهاننا قوة الجذب المركزي وقوة الطرد المركزي. وسواء أكان هذا يتوافق مع قانون "نيوتن" في الجاذبية أو مع نظرية "المجال" لـ"أينشتاين" فإنهما سيّان إزاء الإشارة القرآنية.

والحقيقة أن إشارة القرآن إلى "أن الشمس والقمر يجريان" إشارة مهمة. وقد ورد في سورة الرحمن أن حركة الشمس والقمر تجري بحساب دقيق: ﴿**الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ**﴾ (سُورَةُ الرَّحْمَنِ: ٥/٥٥). وجاء في قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ (سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ: ٢١/٣٣). وفي سورة يس بعد أن يذكر جريان الشمس تقول الآية: ﴿**لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ (سُورَةُ يس: ٣٦/٤٠)، أي أن الشمس والقمر والكواكب الأخرى خلقت تحت نظام معيَّن وأن حركة الجميع في اتساق ونظام رياضيّ دقيق.

تقول آية في قوله تعالى: ﴿**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى أَلاَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ**﴾ (سُورَةُ الزُّمَرِ: ٣٩/٥). هنا جاء ذكر تكوير الليل

على النهار، والنهار على الليل عند الحديث عن تعاقب الليل والنهار، أي شبه تعاقب الضوء والظلام في الدنيا بلف عمامة على هامة كرتنا الأرضية.

وتذكر آية أخرى: ﴿**وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا**﴾ (سُورَةُ النَّازِعَاتِ: ٧٩/٣٠)، أي بشكل ''قطع ناقص''، أي إن الأرض بيضوية الشكل، وهكذا يعرض أمام المشاهدين النقطة الأخيرة من العلوم، تلك النقطة التي لا يمكن الوصول إليها إلا بالوحي السماوي.

وبالنسبة لتوسع المكان تقول الآية: ﴿**وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ**﴾ (سُورَةُ الذَّارِيَاتِ: ٥١/٤٧). وسواء أكان هذا التوسّع كما فهمه ''أينشتاين'' أو كما فهمه ''أدوين هوبل'' من تباعد السدم بعضها عن البعض الآخر، ولكن المهم هو إشارة القرآن إلى صلب هذا الموضوع وتقدمه وسبقه للعلوم التجريبية في هذا الأمر.

٣- علم الأرصاد الجوية (*Meteorology*)

في معرض تعداد نعم الله تعالى وتذكير الإنسان بها وكذلك في معرض الوعيد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم حول سوق الرياح وتكاثف الغيوم وتكهرب الهواء وتولد البرق والرعد. فمثلًا تقول الآية الكريمة: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ**﴾ (سُورَةُ النُّورِ: ٢٤/٤٣).

وهكذا يقوم القرآن بشرح حادثة المطر، ويبين وجود نعم إلهية وراء أصوات الرعد المخيفة ووراء سنا البرق الذي يذهب بالأبصار، فيدعو أصحاب القلوب الواعية إلى اليقظة الدائمة، ثم يشرح كيفية نزول الأمطار والبرد بشكل غريب بحيث لا يتناقض ولا يتصادم

مـع مـا هـو معـروف الآن علميًّـا، فـلا يملـك الإنسـان إلَّا الإعجـاب ببيانـه. ولكـن القـرآن هنا لا يركز علـى التفاصيل الدقيقـة لحادثة المطر مـن ناحية وجـود شـحنتين كهربائيتيـن مختلفتين، ووجود قـوة تجاذب بين الشـحنتين المختلفتين وقوة تنافر بين نفس الشحنتين ودخول الرياح في هذه العملية وقيامها بالتأليف بين السحب التي تحمل هذه الشحنات المتنافرة، واتحاد الشحنات الموجبة المرتفعة من الأرض مع الشحنات الموجـودة فـي الفضـاء وتولد البـرق ونـزول الماء على شـكل قطرات إلـى الأرض.. مثـل هـذه التفاصيـل لا يركـز عليهـا القـرآن، بـل يشـير إلى الحادثة الأصلية ويدع التفاصيل لتقدم العلوم بتقدم العصور.

أمـا فـي قولـه تعالـى ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ (سُورَةُ الْحِجْرِ: ١٥/٢٢) فإنها تضيف شـيئًا جديـدًا لهـذا الموضوع فتلفت الأنظـار إلى دور الرياح فـي عملية تلقيح الأشـجار والأزهار، إضافة إلى دورها في تلقيح السـحب والغيوم. علمًا بأنـه لـم يكـن معروفًـا في العصر الـذي نزل فيـه القرآن حاجة الأشـجار والنباتات والأزهار والسحب إلى التلقيح، ولم يكن أحد يعرف أي وظيفة للرياح آنذاك.

٤– الفيزياء

مـن المواضيـع التـي يتناولهـا القـرآن موضـوع أن المـادة التـي يتألـف منهـا هـذا الوجـود مخلوقة بشـكل مـزدوج. ففـي قولـه تعالـى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (سُورَةُ الذَّارِيَاتِ: ٥١/٤٩). فهنـا يذكـر القـرآن أن كل شـيء خلـق زوجيـن وأن هـذا مبدأ أساسـي فـي الوجود. وفـي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (سُورَةُ الشُّعَرَاءِ: ٢٦/٧). فيوجـه الأنظار إلـى مئات الآلاف

من الأزواج من النباتات والحيوانات التي تزخر بها الأرض ويتم التذكير بالنعم الإلهية التي لا تعد ولا تحصى.

أما الآية في سورة يس فهي أكثر تفصيلًا وشمولًا: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سُورَةُ يس: ٣٦/٣٦). تشير هذه الآية إلى الأزواج التي نعرفها من المخلوقات وتقول إن هناك أزواجًا أخرى لا نعرفها وتدعونا إلى التأمل والتفكر.

هناك آيات عديدة أخرى في هذا المجال عدا الآيات التي ذكرناها أمثلة فقط، وكل آية منها تعد معجزةً قرآنيةً تبرهن بأوضح دليل أن القرآن الكريم كلام الله وأن محمدًا ﷺ هو رسوله إلينا.

أجل، لقد تناول القرآن مواضيع علمية عديدة بدءًا من ظهور الحياة على سطح الأرض إلى تلقيح النباتات وتكاثرها، إلى خلق أصناف الحيوانات، إلى دساتيرها الحياتية المليئة بالأسرار، إلى عوالم نحل العسل والنمل الغريبة، إلى طيران الطير، إلى طرق تكوّن الحليب في الحيوان، إلى المراحل التي يمر بها الجنين في رحم أمه...إلخ. وذلك بأسلوب خاص به وحده، أسلوب وجيز ومركّز وبليغ ومهيمن. فإذا وضعنا تفاسيرنا جانبًا فإن هذه الآيات تبقى على الدوام محافظةً على غضارتها ونضارتها وتبقى أهدافًا نهائية للعلم.

إذًا فهذا الكتاب يشير إلى هدف يتجاوز ما يستطيعه الآلاف من الناس بعد جهد عصور عديدة من الوصول إليه يتجاوزه فيلخّص الموضوع بشكل دقيق.. مثل هذا الكتاب لا يمكن أن يعود لإنسان عاش قبل أربعة عشر قرنًا، لأنه لو حاول مئات من المتخصصين وآلاف من العباقرة اليوم لما استطاعوا الإتيان بمثله.. أي بمثل هذا القرآن الغنيّ جدًّا بمحتوياته وبيانه وأسلوبه الإلهي الجذاب المعجز.

والآن لنسأل مخاطبنا: ممن تعلّم هذا الأمي -الذي كانت أمّيّته معجزةً عليه أكمل التحايا- كيفية تكوّن الحليب لدى الأحياء في عهد لم تكن المدرسة معروفةً فيه ولا الكتاب؟ وكيف استطاع معرفة أن الرياح تقوم بتلقيح الغيوم والنباتات؟ وكيف عرف كيفية تشكل الأمطار والبرد؟ ومن أي مرصد ومن أي تلسكوب عملاق رصد توسع المكان والكون؟ ومَن علّمه أنّ شكل الكرة الأرضية شكل بيضوي؟ وفي أي مختبر تعلم مكونات الجو، وأن الأوكسجين يقل في الطبقات العليا منه؟ وكيف شاهد -وبأي جهاز أشعة أكس- مراحل الجنين في رحم أمه؟ ثم كيف استطاع أن ينقل كل هذه المعلومات إلى مخاطبيه بكل ثقة واطمئنان ودون أي تردد وكأنه خبير متخصص في هذه العلوم؟

٥- مثلما قام القرآن الكريم بتعليم الرسول ﷺ وظائفه ومهامه ومسؤولياته وصلاحياته وأبان له هذه السبل قام أحيانًا بتوجيهه وتنبيهه ومعاتبته أيضًا. فمثلًا نبهه عندما أذن لبعض المنافقين بينما كان من المفروض ألا يأذن لهم فقال: ﴿عَفَا اللّٰهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (سُورَةُ التَّوْبَةِ: ٤٣/٩). كما لم يوافقه القرآن في موضوع أسرى بدر فقال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّٰهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللّٰهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سُورَةُ الأَنْفَالِ: ٦٧/٨)، ثم قال: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللّٰهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (سُورَةُ الأَنْفَالِ: ٦٨/٨).

وعندما سألته قريش عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين قال لهم رسول الله ﷺ: "أُخْبِرُكُمْ بِمَا سَأَلْتُمْ عَنْهُ غَدًا"، ولم يستثنِ أي لم يقل "إن شاء الله"، فانصرفوا عنه. فمكث رسول الله ﷺ -فيما يذكرون- خمس عشرة ليلة لا ينزل الله إليه في ذلك وحيًا، ولا يأتيه

جبريل عليه السلام... حتى أحزن رسول الله ﷺ تأخر الوحي عنه، وشقّ عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطواف، والروح(٦١)، وفيها أيضًا تنبيهه ﷺ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۝ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (سُورَةُ الْكَهْفِ: ١٨/٢٣-٢٤).

وفي مرة أخرى نزل ما يشم منه عتاب رقيق حول وجوب أن تكون الخشية من الله تعالى فقط: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ (سُورَةُ الأَحْزَابِ: ٣٣/٣٧).

وعندما حلف ألا يشرب شربة العسل إرضاءً لزوجاته لم يوافقه القرآن في هذا بل عاتبه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سُورَةُ التَّحْرِيمِ: ٦٦/١)(٦٢).

فبمثل هذه الآيات تُشرح مسؤوليات الرسول ووظيفته وحدود صلاحياته من جانب، ومن جانب آخر يُنبَّه ويعاتَب عندما يخرج ولو قيد أنملة خارج هذه الحدود، أي حدود "المقرَّبين". فهل يُعقل أن يقوم شخص بتأليف كتاب ثم يذكر في ثنايا صفحاته عتابًا وتحذيرًا وتنبيهًا لنفسه؟ حاشا لله.. فالكتاب كتاب الله سبحانه، أما هو ﷺ فرسول رفيع المنزلة ومبلّغ عن الله تعالى.

٦- إن القرآن ذروة في البلاغة، ولا ند أو مثيل له في هذا الخصوص، لذا لا يمكن عزوه إلى إنسان. عندما أعلن الرسول ﷺ نبوته كان هناك

(٦١) سيرة ابن هشام: ١/٣٢٢-٣٢٣؛ تفسير الطبري: ١٧/٥٩٣.

(٦٢) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَمْكُثُ عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، وَيَشْرَبُ عِنْدَهَا عَسَلًا، فَتَوَاصَيْتُ أَنَا وَحَفْصَةُ: أَنَّ أَيَّتَنَا دَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ فَلْتَقُلْ: إِنِّي أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغَافِيرَ، أَكَلْتَ مَغَافِيرَ، فَدَخَلَ عَلَى إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: "لَا، بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، وَلَنْ أَعُودَ لَهُ" فَنَزَلَتْ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ﴾ (البخاري: الطلاق، ٨؛ مسلم: الطلاق، ٢٠).

العديد من الشعراء وعباقرة البلاغة والبيان ممن كانوا محل إعجاب وتقدير الكثيرين، وكان أكثر هؤلاء في الصف المعارض له. وكم تشاور هؤلاء حول كيفية التغلب على القرآن، حتى إنهم أحيانًا راجعوا رهبان النصارى وأحبار اليهود لأخذ وجهات نظرهم، لأنهم كانوا قد عزموا على إيقاف سيل القرآن وتجفيف نبعه الفيّاض، وكانوا مستعدين لعمل أي شيء في هذا السبيل. وعلى الرغم من جميع هذه العوائق استمر الرسول ﷺ في سبيله يكافح الكفار والملحدين، وسلاحه الوحيد هو القرآن حتى وصل إلى النصر المؤزر رغم أنف كل هؤلاء الأعداء.

وبينما كان بلغاء العرب في جبهة واحدة مع علماء المسيحية واليهودية يقيمون الدنيا ويقعدونها، كان الأسلوب البليغ للقرآن وبيانه الساحر وروحانيته الأخاذة تفتح القلوب وتغزوها... لقد وقف في الميدان وقفةَ مبارزٍ يتحدى خصومه أن يأتوا بمثله، فإن لم يستطيعوا فليأتوا بسورة من مثله، فإن لم يستطيعوا فبآية واحدة، وإلا فنكِّسوا رؤوسكم وانصرِفوا ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (سُورَةُ الإِسْرَاءِ: ١٧/٨٨)، ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (سُورَةُ هُودٍ: ١١/١٣)، ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (سُورَةُ يُونُسَ: ١٠/٣٨)، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٢/٢٣).

وهكذا تعاقبت التحديات ولكن لم يستجب أحد لهذه التحديات أو يتجاسر على قبولها، إن استثنينا محاولةً أو محاولتين كان الهذيان طابعهما. وهذا يُبَرْهِن أن منبع القرآن ومصدره ليس بَشَريًّا. ذلك لأن

التاريخ يشهد أن خصوم الرسول ﷺ وأعداءه لم يتورعوا عن أي شكل من أشكال العِداء والإيذاء والمحاربة، ولكنهم لم يفكروا في تقليد القرآن. ولو استطاعوا ذلك، أي لو كان ذلك في وسعهم لما تأخروا عنه قط، ولَمَا كانت هناك حاجة للدخول في الحروب.

أجل، إن اختيار هؤلاء البلغاء والفصحاء طريق الحروب التي تتعرض فيها الأنفس والكرامة بل حتى الأعراض إلى الخطر، يبرهن على عجزهم عن تحدي القرآن. ولو كان باستطاعتهم تقليد القرآن أو الإتيان بمثله لَمَا تأخروا عن ذلك ولما اختاروا طريق الخطر وهو طريق الحرب.

وبعد ثبوت عجز بلغاء العرب عن الإتيان بمثيل للقرآن، فإن البحث عن منبع القرآن ومصدره في علماء أهل الكتاب من يهود أو نصارى بحث عقيم ودليل على العجز. ولو كان في مقدور اليهود والنصارى الإتيان بكتاب غني بمحتواه مثل القرآن لم ينسبوه إلى شخص آخر، بل كانوا يفاخرون الناس بمثل هذا الكتاب الذي وضعوه.

ثم إننا إن صرفنا النظر عن بعض المستشرقين والكفار فإننا نرى آلافًا من المفكرين والباحثين ورجال العلم الذين أبدوا إعجابهم وتقديرهم لما في القرآن وبلاغة أسلوبه من معنًى ومبنًى ثريّ:

- "جارلس ميلر": إن القرآن ببلاغة أسلوبه وغِنَى محتوياته في مستوًى يصعب ترجمته.
- "فيكتور أمبروس": إن القرآن غَنيّ المحتوى إلى درجة يصلح معه لأن يكون منبعًا لجميع القوانين.
- "أرنست رينان": إن القرآن أحدث ثورة أدبية كذلك بجانب الثورة الدينية.

• "كوستاف لوبون": إن الدين الإسلامي الذي أتى به القرآن يحمل أصفى عقيدة توحيدية وأنقاها.

• "ك.أ. هيوارت": إنه يؤمن بأن القرآن وحي من الله تعالى إلى رسوله محمد ﷺ.

• "هـ. هولمان": إن محمدًا ﷺ هو آخر نبي أرسله الله تعالى للناس، وإن الدين الإسلامي هو آخر الأديان السماوية.

• "أميل درمنهيم": إن القرآن هو المعجزة الأولى للرسول ﷺ وإنه بجماله الأبدي سيبقى لغزًا لا يمكن الوصول إليه.

• "آرثر بللغزي": إن القرآن الذي قام محمد ﷺ بتبليغه هو من عند الله.

"جين بول روكس": إن أكبر معجزة لرسول الإسلام هو القرآن الذي أنزل وحيًا عليه.

• "رايموند جارلس": إن القرآن هو أكثر كتب الوحي الإلهي -المبلغ إلى المؤمنين- حيويةً.

• "موريس": إن القرآن معجزة وفوق كل نقد، والذين يشتغلون بالأدب يجدون فيه مصدرًا أدبيًا، أما المتخصصون في علم اللغة فيجدون فيه خزينةً كبيرةً للألفاظ، وهو منبع إلهام للشعراء.

• "مانويل كنج": إن القرآن هو المجموع الكامل لما تلقاه النبي من الوحي طوال سنوات نبوته.

• "رودويل": إن الإنسان ليزداد ذهولًا كلما أمعن في قراءة القرآن، ولا يملك إلا الإعجاب به وتبجيله...

ما نقلناه أعلاه ليس إلا بعض الجمل من بعض رجال العلم والفكر، وهناك مئات غيرهم توصلوا إلى النتيجة نفسها، وذلك حسب سعة فكرهم، ولم يجدوا أمامهم سوى إبداء الإعجاب والتقدير للقرآن الكريم. وما كان لنا أن نقول شيئًا حول القرآن الكريم بجانب العديد من الأساتذة والمختصين وبجانب الكتب القيمة جدًّا في هذا الموضوع، ولكننا أردنا مشاركةً بسيطةً في هذا الأمر، وعسى أن يغفر لنا صاحب القرآن ﷻ هذه الجرأة.

الغيبيات الخمس

سؤال: **يُذكر في آخر سورة لقمان أن نزول المطر وعلم ما في الأرحام في خمس لا يعلمهنّ إلا الله، إلا أن هذين الأمرين قد خرجا عن الغيبيات اليوم، فماذا تقولون في هذا؟**

الجواب: أتذكر أنّا تحدّثنا عن هذه المسألة، وفصّلنا فيها القول، لكنّي كلما سُئلتُ عن مسألة قرآنية لم أجد بُدًّا من الإجابة عنها وإن مرارًا وتَكرارًا؛ فما من مسألة قرآنية إلا وهي في عظمتها وشموخها كالجبال الرواسي، فسأطاوع مشاعري وأذكر شيئًا في المسألة.

يقول الله تعالى في آخر سورة لقمان: **﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾** (سُورَةُ لُقْمَانَ: ٣١/٣٤).

المسألة الأولى: يذكر القرآن الكريم أن الله **﴿عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾**، ويجعل من هذه الحقيقة أساسًا، ليس لأيّ شخص أن يُدلي بدلوه فيها أو يتفوه ولو بحرف اللهم إلا بعد أن يقول: "الله أعلم".

في حديث جبريل المشهور المرويّ عن سيدنا عمر بن الخطاب وأبي هريرة ﵄ يسأل جبريل ﵇ النبيَّ ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان فيقول بعد كل إجابة: "صدقتَ"، وأخيرًا سأله عن الساعة فقال ﷺ: **"مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ"**(٦٣). أجاب سيدنا رسول الله ﷺ

(٦٣) البخاري: الإيمان، ٣٧؛ مسلم: الإيمان، ١.

على هذه المسألة الغيبية بأدب نبويّ، لأنه ﷺ وجبريل عليه السلام كانا يشتركان في علم أنه لا يعلم وقت القيامة إلا الله.

أما كيفية قيام الساعة فهناك أسباب كثيرة في دائرة الإمكان يكفي أحدها لقيامها، كاصطدام نجم مذنب بالأرض.. وانشطار الشمس أو انطفائها وَفقًا لقانون الديناميكية الحرارية.. وظهور سلسلة تفاعلات بخطأ يرتكبه الناس على الأرض، فينتج عنها تدمير النظام الشمسي وهكذا.

المسألة الثانية: ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾، وهي من أكثر ما يُثار حولها الجدل، يقولون تبعًا لمنطقهم: "لنا اليوم أن نعلم متى ينزل المطر، بناءً على نتائج علم الأرصاد الجوية؛ إذًا لا معنى لقولنا إنها من الغيبيات..."

إن الذين يختلقون مثل هذا السؤال يهدفون إلى تلبيد سماء القرآن الصافية بالشبهات، وحساسيتنا في الإجابة عنه تنطلق من هذا السبب.

ترى! ما العلاقة بين ما يدّعون معرفته بالتقنيّات الحديثة وبين الغيب؟

نعم، إن تنبؤهم بوقت نزول المطر -وقد لاحت في الأفق أماراته وبدأت تظهر في عالَم الشهادة علاماته- لا يمتُّ إلى معرفة الغيب بِصلة.

وهاك مثالًا يسيرًا يوضّح المسألة:

نفترض أننا عبّأنا غرفة بثاني أكسيد الكربون، ولما أجرينا تجاربنا بآلات تكشف عن وجود ثاني أكسيد الكربون كانت النتيجة: بعد ساعتين سيشعر من بالغرفة جميعًا بثقل وصداع، فإذا ما وقع هذا أفيكون علمًا بالغيب؟ كلّا، فهذا ليس غيبًا، فالغيب هو ما استأثر الله تعالى بعلمه، فمثلاً معرفة وقت نزول المطر ومكانِه وقدْرِه تفصيلًا في سنة أو سنوات قادمة هذا يُعدّ غيبًا، أمَّا التنبؤ بنزول المطر غدًا في مكانٍ ما فليس من الغيب في شيء، ومع هذا إن عدم وقوع تنبؤاتهم أحيانًا يُثبِت أن معرفتهم

بالأمر ناقصة؛ وإن المتخصصين في هذا العلم هم يسمّونه "تنبُّؤًا". وفضلًا عن السنة القادمة، هل لهؤلاء أن يعلموا شيئًا عن قدر المطر الذي سينزل غدًا؟

وإن العلم بوقت نزول المطر إذا لاحت أَماراته في عالم الشهادة لا يعوزه آلات ولا أدوات، فهناك كثيرون من الناس يتنبؤون بذلك بتجربتهم وخبرتهم، ومن المناسب هنا أن أكرر حادثةً ذكرتها من قبل:

زار بعضُ العلماء الأمريكيين تركيا، لإجراء بحث خاصّ، وقابلوا راعيًا في قرية، وبعد مدة ساق الراعي المعز نحو المربض، فسألوه عن ذلك، فقال: يوشك المطر أن يهطل، فتحيروا ودهشوا، فلا شيء ينبئ بذلك من علامة في الجو أو إشارة في مقياس الضغط الجويّ "البارومتر"، وما مضت مدّة حتى بدأ المطر يهطل بغزارة، فهرْوَلوا إلى المربض وسألوا الراعي: كيف عرفت؟ فكان جوابه مثيرًا غريبًا: من خلال تجربتي منذ سنوات شاهدت ذيل المعز ينكمش قُبيل نزول المطر، فعرفت أن المطر سيهطل، فألقَوا ما بأيديهم من آلات، وقالوا: "لَذيلُ المعز أنفع منكِ!"

يقول الأستاذ بديع الزمان: "إني أشعر أحيانًا بشعور مرهف في أعصابي بما سيأتي من الغيث قبل مجيئه بأربع وعشرين ساعة". والتنبؤ بنزول المطر والثلج شائع في القُرى استئناسًا بعلامات وإشارات ما، فليس من العلم بالغيب إذًا أنْ نعلمَ وقت نزول المطر بهذه الصورة وتلك الحسابات، فالاعتراض على حكم القرآن بإظهار التنبُّؤ بوقت نزول المطر على أنّه علم بالغيب جهلٌ محض، كيف وهناك حسابات معيّنة وأَمارات ظاهرة نتجت عن عوامل جويّة مثل وضع السحابة المحملة بالمطر، والضغط الجوي، وأنظمة الرصد الجوي؟

وأودُّ أن أعـرِض للإعجـاز العلمي في السـنة النبوية في حديث أقرَّت البحـوث العلميـة الحديثة بمفاده: "مَـا عَامٌ بِأَمْطَرَ مِـنْ عَامٍ"(٦٤)؛ أي معدَّل المطـر لا يختلـف بين عام وآخـر، أمَّا قدْر ومكان نـزول المطر فذاك هو الغيب الذي لا يعلمُه إلا الله.

المسـألة الثالثـة: ﴿وَيَعْلَـمُ مَا فِي الْأَرْحَـامِ﴾، ويجادلون في هـذه أيضًا، يقولون: إن الأشـعة السِّـينيّة تتيح لنا اليوم تشخيص حالة الجنين، ومعرفة نوعه ذكرًا كان أم أنثى.

ولمـا كان العامـل فـي الذكورة والأنوثـة هو ذكورة الحيـوان المنوي أو أنوثته فمن الممكن أيضًا تحديد جنس الجنين في هذه المرحلة.

والأصل الذي ذكرناه آنفًا يأتي هنا أيضًا، أعني ليس من الغيب معرفة شيء أصبحت مقدماته ظاهرة للعِيان.

فتحديـد الحيـوان المنـوي الذكر -فـي الرحم أو فـي الأنبوب- ليس من الغيب في شيء؛ لتقدُّم العلم بالأسباب الدالّة عليه.

يقـول ﷺ: "إِذَا سَـبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَـرْأَةِ نَزَعَ الْوَلَدَ وَإِذَا سَـبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ نَزَعَـتْ"(٦٥)؛ وأخطـأ التأويـل مـن لـم يفهـم الحديـث، وتوهّـم أن الغلبة إذا كانـت للرجـل كان المولـود ذكـرًا، وإن كانـت للمـرأة كان أنثـى. ولعل الصواب في تأويله: إذا سبقَ الحيوان الذكريُّ الأنثويَّ ولقّح البويضة كان المولود ذكرًا، وإلا كان أنثى.

وهذا من الإعجاز العلميّ في السنة النبويّة، واليوم يقرِّره العلماء.

فمـن عرف مسـألةً كهذه بعد ظهور مقدِّماتها، وعـدَّ هذا علمًا بالغيب فقد خدع نفسه.

(٦٤) المستدرك للحاكم: ٤٣٧/٣، السنن الكبرى للبيهقي: ٥٠٧/٣.

(٦٥) البخاري: المناقب ،٥١؛ تفسير سورة البقرة، ٨؛ مسند الإمام أحمد: ١٠٨/٣.

وعندما ذكر القرآنُ الكريمُ المسألةَ قال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾، وكلمة "ما" في الآية من ألفاظ العموم؛ أي إنَّه سبحانه يعلم كلّ ما في الأرحام، وليس في الآية ما يخصص العموم ليقصره على الذكورة والأنوثة؛ فهو سبحانه يعلم نوع المولود كما يعلم مراحل حياته كلها؛ مستقبله، وطباعه وخصائصه وعيوبه، وشقي أم سعيد، فهو وحده سبحانه من له علم هذه المسائل كلها.

فالغيب في هذه المسألة هو كل ما يدخل في عموم لفظ "ما"، لا الذكورة والأنوثة فحسب، فحديث القرآن عن المسألة عامّ شامل، فمعرفة ما شمله الحدُّ القرآنيّ علمٌ بالغيب، وما سِوى ذلك دعاوى هدفها الجدلُ والتضليلُ.

ولتقريب المسألة إلى الأذهان إليكم هذا المثال:

لو أنّكم أمام شجرة تفاح، جذرها وجذعها حيثُ أنتم، وفروعها وأغصانها من ناحيةٍ أخرى لا ترونها، ولما جاء الموسم قلتم: أغصان هذه الشجرة المستورة عنّا مُثقلة بالثمَر، فهل هذا الاستنتاج من العلم بالغيب أم أنّه أمر ربما يدركه الناس جميعًا وينتبهون إليه عادةً؟ لو سُئلتم فلا ريب أنكم ستختارون الجواب الثاني، وهكذا القول في معرفة حال الجنين بناءً على مقدمات سبقَت، فهو ليس من الغيب في شيء، بل هو نظير التنبؤ بثمر شجرة جذعها في عالم الشهادة وأغصانها في عالم الغيب، وإنّ نفث السموم لتلبيد سماء القرآن الصافية بالغيوم ودعوى أنّ معرفتهم تلك علمٌ بالغيب لهو عينُ الحماقة والبلاهة.

المسألة الرابعة: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾، لا ينبغي تقييد هذا بالكسب الماديّ، فالعطاء ماديًّا كان أم معنويًّا كسب، وما يحظى به المرء من الطمأنينة كسب، وزيادة العلم أيضًا كسب، وهو وحده سبحانه

مَن يعلم قدْر هذا الكسب، فربّما يقرأ المرء أسفارًا ولا يرجع منها بشيء، وقد يقرأ معلومةً تعدِل كتابًا وتستثير مصادر الإلهام كلَّها لديه.

ولو فكرنا في الكسب المادي فقط، لوجدنا أيضًا أن الإنسان ولو ذا راتب مستقرّ لا يدري ماذا يكسب غدًا. فذو التجارة والحرفة لا اختلاف في عدم علمه، أما ذو الراتب فقد يكافأ أحيانًا وقد يفاجأ بعقوبة، فيتغيّر ما يتقاضاه، وقد تنزل به مصيبة تُوقِع على الوارد والمصروف ما لا يُتوقع؛ نعم، قد يُهدَى إلى الإنسان شيء قيمته باهظة مما لم يكن في الحسبان، بل لم يكن قبل خمس دقائق متوقعًا؛ والأمثلة كثيرة، فنتفادى التطويل، ونقول كما قال سبحانه: ﴿**وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا**﴾.

والمسألة الخامسة: ﴿**وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ**﴾، علمها عند الله ﷻ، وإننا لَنجهل حقًّا متى سيأتينا ملك الموت أو أحد أعوانه ليقبض أرواحنا، وهذا أمر مسلَّم به.